تحولات مفهوم الهوية في عصر الحداثة السائلة عند زيغمونت باومان

The Transformations of the Concept of Identity in the Age of Liquid Modernity According to Zygmunt Bauman

د. أمبارك أحمد[1]، د. بكيري محمد أمين[2]

[1] جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة (الجزائر)، a.embarek@univ-dbkm.dz

[2] جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة (الجزائر)، m.bakiri@univ-dbkm.dz

تاريخ الإرسال: 2025-03-27**تاريخ القبول:** 2025-06-16**تاريخ النشر:** 2025-06-30

ملخص: بالنسبة إلى زيغمونت باومان، نحن نعيش الآن في عالم سائل. السرعة والعابر (l'éphémère) والتنقل/الحركة هي السمات المميزة للحداثة وكلماتها المهيمنة، حيث جعلت النزعة الاستهلاكية المتفاقمة كل شيء قابلاً للاستهلاك ورميه والتخلص منه (jetable)، بما في ذلك هوياتنا. حول مفهومه عن "السيولة"، يعمل باومان على وصف أصلي مبتكر للعالم ويقدم تصورا سائلا عن الهوية.

قدم باومن مفهوم الحداثة السائلة لوصف التحولات الجذرية في المجتمعات المعاصرة. وفي هذا الإطار، أصبحت الهويات الفردية والجماعية غير ثابتة، بل متغيرة باستمرار، مما يعكس الطبيعة السائلة للحداثة.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الحداثة السائلة، الاستهلاك، العولمة، التغير.

Abstract : "According to Zygmunt Bauman, we now live in a liquid world. Speed, transience (l'éphémère), and mobility are the hallmarks of modernity and its dominant terms, where rampant consumerism has made everything consumable, disposable, and throwaway (jetable), including our identities. In his concept of 'liquidity,' Bauman develops an original and innovative description of the world and presents a liquid conception of identity.

Bauman introduced the concept of liquid modernity to describe the radical transformations in contemporary societies. In this context, individual and collective identities have become unstable, constantly changing, reflecting the liquid nature of modernity."

Keywords: identity ;liquid modernity ; consumption ; globalization; change.

المؤلف المرسل: د. أمبارك أحمد، a.embarek@univ-dbkm.dz

تحولات مفهوم الهوية في عصر الحداثة السائلة عند زيغمونت باومان

المقدمة:

إن التفكير في الهوية، أو بالأحرى هوياتها التعددية، في مجتمع اليوم هو مهمة معقدة، وتحدي لمهمة التفكير نفسه وللحدود التي تم وضعها، انطلاقا من التخصصات الكلاسيكية، للمعرفة الإنسانية والعلمية. إنها بانوراما عالمية قاتمة إلى حد ما، على الرغم من العدد الهائل من الدراسات والتأملات والمقالات والخطابات التي يتم إنتاجها ونشرها باستمرار داخل الوسط الأكاديمي وفي مجال فلسفة الثقافة، منذ بعض الوقت، فإن عرض عناوينها هو مصطلحات أساسية لهذا البحث مثل الهوية، الهويات، الحداثة، الحداثات، ما بعد الحداثة، الحداثة المتأخرة، المجتمع، الجماعة، الفرد والتفريد، الهوية الوطنية، الهوية الثقافية، الراديكالية (التطرف)، التنافر، الاختلاف، التنوع، الأصولية والخصوصية، من بين أمور أخرى.

هناك العديد من الأوجه المتناقضة التي يمكن أن نصادفها عند دراسة الهوية كعملية بناء فردي واجتماعي، خاصة عندما يتم تحليلها في سياق يتسم باتجاهات عولمة الاقتصاد والتجارة والسياسة والسلطة والثقافة، وحيث المواضيع الجديدة مثل الثورة التكنولوجية، وانعدام الأمن، والتعددية الثقافية، والهجرة، والفقر، والتطرف الأيديولوجي والديني، وعنف الإرهاب، من بين أمور أخرى، لها وزن خاص كبير.

ينتقد عمل زيغمونت باومان العالم المعاصر بحزم، والذي يدينه ويندد به باعتباره مصدر الشعور بالضيق والاستياء على نطاق واسع. تتميز الحداثة السائلة، كما يسميها عالم الاجتماع، بمجموعة من الحالات التي تعتبر في الوقت نفسه قيمًا لعصرنا يُنظر إليها على أنها إيجابية وعناصر لا يمكن إنكارها في أصل المعاناة والتفاوتات: العرضية وعدم الاستقرار، الزوال، المرونة، الجموح والجنوني، إلخ.

من خلال صياغة مفهوم السيولة، ينضم بومان إلى أولئك الذين يتساءلون عن العواقب الثقافية للعولمة النيوليبرالية من خلال إضافة بُعد نقدي: الجانب السائل المرتبط بالوجود الاجتماعي مرادف بالضرورة للتفكك والانحلال. يتألق عمله أولاً وقبل كل شيء من خلال ثراء وصف الحياة الحديثة الذي لا يخفي كل

هذا الانزعاج وهذه التفاوتات. ويركز بشكل خاص على مسألة الهوية التي يتم تعديل أنماط وإيقاعات تشكيلها وبنائها.

تظهر هذه الاضطرابات كنتائج مباشرة لتوسيع النزعة الاستهلاكية والتي، وفقًا لباومان، ستنطبق من الآن فصاعدًا على البشر الذين أصبحوا سلعًا، خاضعين للموضة وإعادة التدوير. لكن جودة عمل باومان تعتمد أيضًا على رغبته الملتزمة في اقتراح مجموعة من السبل دائمًا لتحسين مستقبل العالم.

على ضوء ما سبق يمكننا أن نتساءل مع زيغمونت باومان: " ماذا يكون الوسواس القهري الدائم الذي يدفع إلى تحسين الهوية وتجديدها وإعادة تدويرها وإصلاحها إصلاحا شاملا وإعادة تشكيلها من جديد؟ وهل ثابتة ودائمة وواحدة عبر الزمن أم أنها هوية غير متجانسة، هوية عابرة مفككة ومتقلبة تماما؟

أولا: زيغمونت باومان: فيلسوف السيولة

من خلال تصفح السيرة الذاتية لزيغمونت باومان، نجده شخصًا حاول، طيلة حياته، إعادة التفكير في الواقع اليومي في ضوء مسار حياة غني للغاية بالتجارب الشخصية والإشادات الأكاديمية التي تجعله أحد المثقفين الذين يستحقون اهتمامنا.

ولد باومان عام 1925 في بوزنان (بولندا) لعائلة يهودية. كان لاجئاً في الاتحاد السوفييتي في بداية الحرب العالمية الثانية، انضم إلى الجيش الأحمر لمحاربة النازية وشارك في تحرير برلين. عند عودته إلى بولندا، طُرد من الجيش نتيجة لحملة معادية للسامية، ومنذ تلك اللحظة بدأ مسيرته الأكاديمية في عام 1953 في وارسو، حيث برز لاحقًا كواحد من أهم المثقفين في البلاد. بعد دعم الحركة الطلابية البولندية الناشئة في عام 1968، حظر الحزب الشيوعي نشر أعماله ومنعه من التدريس. هذه الأحداث هي التي عجلت بانتقاله إلى إنجلترا حيث قام بالتدريس هناك في جامعة ليدز وحيث طور أهم أعماله (الحداثة والهولوكوست، 1989؛ أخلاقيات ما بعد الحداثة، 1993؛ العولمة: العواقب الإنسانية، 1998؛ الحداثة السائلة، 2000؛ المجتمع المفردن، 2001؛ المجتمع المحاصر، 2002).

دون إخفاء تأثير أعمال **جورج زيمل** على تكوينه السوسيولوجي، اتخذ باومان محور بحثه الأخير استكشاف "العالم الجديد" المعولم الذي وصفه العديد من المنظرين بأنه "ما بعد الحداثة" و"نهاية التاريخ" (**فرنسيس فوكوياما**)، "الحداثة الثانية" (**أولريش بيك**)، «الحداثة المتأخرة» (**أونتوني غيدنز**)، "الحداثة المفرطة" (**مارك أوجيه**) أو كما يفضل هو أن يسميها "الحداثة السائلة". ومن خلال استقراء سيرته يمكن تحديد المواضيع الرئيسية التي اشتغل عليها باومان عبر فترات تاريخية نوجزها فيما يلي:

الفترة البولندية (1957–1968): أيد زيغمونت باومان **تقليد الماركسية**: لقد حلل عيوب المجتمع الشيوعي البولندي بهدف إتقان المشروع السوفييتي. سيقوده هذا المشروع إلى مواقف تنتقد بشكل متزايد المذهب الشيوعي.

علم الاجتماع النقدي (1971–1982): عند وصوله إلى المملكة المتحدة، طور باومان فكرًا إنسانيًا كان يُفهم فيه علم الاجتماع على أنه أداة للتحرر يتعارض مع ذلك الذي يستخدمه "علماء اجتماع السلطة" الذين كانوا، في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية وفي الولايات المتحدة، ملهمين من الماركسية العقائدية أو الفكر الإداري، من أجل غاية وحيدة هي توفير توقعات اجتماعية كمية للحكومات. تحت تأثير جورج سيميل (Georg Simmel)، يحلل تضارب وازدواجية الكائنات الاجتماعية التي تبحث عن الأمن والحرية في آن واحد.

نقد الحداثة (1987–1991): خلال السنوات التي تلت سقوط جدار برلين، نشر زيغمونت بومان ثلاثية: "إنحطاط المثقفين: من المشرعين إلى المؤولين" (1987)، "الحداثة والهولوكوست" (1989)، "الحداثة والازدواجية" (1991)، التي تشكل الثالوث الأساس لنقده للحداثة. إنه يسلط الضوء على الجوهر الشمولي للحداثة التي يحتل فيها الأمن مكانًا متعاظمًا على حساب الحرية. حسب باومان، إن "المشروع الحديث" يتمثل في منح الدولة كافة أجهزة تنظيم ووسائل تقنين الحياة الاجتماعية. في هذا الصدد، يتحدث

عن "دولة البستنة" التي تهدف إلى الفرز بين العناصر المفيدة والضارة. ضمن هذه النظرة، تعتبر "المحرقة" (la Shoah) ظاهرة حديثة نموذجية بطبيعتها المنظمة والبيروقراطية. من وجهة النظر هذه، يتفق مع أطروحة حنة أرندت (Hannah Arendt) حول تفاهة الشر (la banalité du mal).

عصر ما بعد الحداثة ثم المجتمعات السائلة (منذ عام 1992): إنطلاقا من التسعينيات، درس زيغمونت باومان المجتمعات الغربية المعاصرة، واصفا إياها أولاً بالمجتمعات الما بعد حداثية ثم السائلة. حسبه، مع الدخول في عصر الاستهلاك، قلبت مجتمعات ما بعد الحداثة عدم التوازن الحديث بين الأمن والحرية لصالح الحرية. الحرية التي تم نزع الضوابط عنها وخصخصتها تلغم وتقوض شبكات الأمان المشتركة. وهكذا تلعب الدولة دور "حارس الصيد" لضمان النظام الاجتماعي في عالم يكون فيه الجميع يتصرفون وفق إرادتهم، إذ يقول باومان: " يختلف المجتمع الحديث عن المجتمعات السابقة له أنه اختلاف يشبه الاختلاف بين البستاني وحارس الصيد " (بومان، 2012، صفحة 28). تشكل المتعة (اللذة)، والاستهلاك والحرية الفردية قلب المجتمع الما بعد حداثي وجوهره حيث لا يزال الاستقلال الذاتي غير مضمون بسبب الافتقار إلى إمكانيات الأمن الجماعي. يوضح زيغمونت باومان هذا التغيير من خلال وصفه، على سبيل المثال، تلفزيون الواقع باعتباره استعارة للعالم المعولم، حيث "ما يتم تقديمه، هو القابلية للرمي (jetabilité)، والقابلية للتبادل والاستبعاد" في مجتمع فائق التنافسية (ultra-concurrentielle) من " اللاأمن الاجتماعي" (بيير بورديو).

في عام 1998، أطلق زيغمونت باومان استعارته لـ "المجتمع السائل"، وهو المفهوم الذي يفضله بهدف استبدال مفهوم "المجتمع الما بعد حداثي". إن "المجتمع السائل" يتعارض مع "المجتمع الصلب" الذي يتم فيه إنشاء هياكل وبنيات التنظيم المشترك وخلقها بشكل جماعي. في "المجتمع السائل"، المرجع الوحيد هو الفرد المدمج بفعله وسلوكه الاستهلاكي. لا يتم تحديد الوضع الاجتماعي، أو الهوية أو النجاح سوى عن طريق الخيارات الفردية ويمكن أن تتنوع وتتقلب بسرعة وفقًا لمتطلبات المرونة (flexibilité). يعرّف العلاقات الاجتماعية بأنها غير ملموسة أكثر فأكثر في مجتمع اليوم. يأخذ باومان مثال الحب أو الشعور

كشاهد على لامادية العلاقات التي أقيمت "إلى أن يتبدل الوضع": إن المجتمع سائل، لأن الروابط الدائمة بين الرجال والنساء أصبحت مستحيلة. ووفقًا له، فإن المجتمع الاستهلاكي الحالي والنموذج الاقتصادي النيوليبرالي مسؤولان عن هذا الأمر القسري لكل فرد مستهلك بالتكيف مع العالم المعاصر (الحرية غير المؤكدة) دون توفير الوسائل (الأمن المطمئن). إن المشاكل هي كونية والسياسة المحلية، والصلة بين السلطة والسياسة مفككة لأن الرقابة الاجتماعية لامركزية لصالح إغراءات الاستهلاك المنتشرة. يمكن أيضًا أن يُعزى مفهوم البؤس الزائد وإطالة الفقر إلى ذلك. في كتابه "حياة ضائعة/تالفة" (Vies perdues)، يعرّفه على أنه تطوير مناطق الفقر المركزة حول المدن، وفي مناطق استعادة النفايات الاستهلاكية. لتوضيح هذا المفهوم، فإنه يأخذ استعارة **إيتالو كالفينو** (Italo Calvino) عن مدينة المستجدات والابتكارات وجبال الاسترداد.

ولكن إذا كانت الحداثة مضللة، فإنها تظل مشروعًا شرعيًا، لأن هناك حاجة قوية جدًا لإخضاعها للتأويل. الحداثة، وبالتحديد، وفقًا لباومان، المجتمع موجه بمشروع خلق عالم مشترك وكون ذي معنى واضح، هو وعد لا يزال يتعين الوفاء به، والذي لا تزال إمكاناته غير مستغلة.

ثانيا: من العالم الصلب إلى الحياة السائلة: الهوية في الحداثة السائلة

زيغمونت باومان هو عالم اجتماع الاضطرابات/التغيرات في المجتمع والدخول إلى ما يسميه "الحداثة السائلة". ولكن إذا كانت هذه الأخيرة نشأت عن تغيير في الحالة (التمييع)، فإن عامله الأساسي يبدو أنه يكمن في تغيير الإيقاع. ما تفعله النيوليبرالية والنزعة الاستهلاكية بالمجتمع هو أولاً وقبل كل شيء حول المدد (durées): "يقوم بقاء أفراد ذلك المجتمع ورفاهيتهم على السرعة التي يتم بها إرسال البضائع والمنتجات إلى عالم النفايات، علاوة على السرعة والكفاءة في التخلص منها" (باومان ز.، الحياة السائلة، 2016، صفحة 23).

إن أطروحة باومان المركزية حول الحداثة السائلة موجودة في جميع أنحاء الكتاب وهي أساسية لفهم التغييرات في مفهوم الهوية. وبحسب المؤلف فإن الميوعة أو السيولة هي استعارات مناسبة لفهم طبيعة المرحلة الحالية من التاريخ الحديث والتعبير عنها. السوائل، على عكس المواد الصلبة، لا تحتفظ بشكلها بسهولة، فهي ليست ثابتة في المكان وتتحرك بسهولة دون أن نتمكن من إيقافها ببساطة. يقول زيغمونت باومان في هذا الصدد: " إن ما تعنيه سمات الموائع سالفة الذكر، بلغة بسيطة، هو أنها على العكس من المواد الصلبة، لا يمكن أن تحتفظ بشكلها بسهولة؛ فالموائع، إذا جاز التعبير، لا تثبت الحيز المكاني، ولا تعوق حركة الزمن. فلا تحتفظ بشكل محدد فترة طويلة، وتكون دائما على استعداد (وميل) إلى تغييره، ومن ثم فإن جريان الزمن هو المحك لأن أهم من الحيز الذي تصادف شغلها له، فهي تشغل الحيز، في نهاية الأمر، "فترة من الوقت". أما المواد الصلبة فتأخذ أبعاداً مكانية واضحة، ولكنها تحيد التأثير، ومن ثم تقلل من أهمية الزمن (فتنجح في مقاومة جريانه، أو تلغي أهميته) " (باومان ز.، الحياة السائلة، 2016، صفحة 42). كانت القوة الدافعة الرئيسية وراء هذه العملية منذ البداية هي التسييل المتسارع للأطر والمؤسسات الاجتماعية. ونحن الآن ننتقل من مرحلة الحداثة الصلبة إلى المرحلة السائلة.

وخلافاً للحداثة في مرحلتها الصلبة التي سعت إلى أن تكون دائمة ومتينة ومقاومة للتغيير، فإن المجتمع اليوم يتميز بتفكك تلك المؤسسات التي عززت العلاقة بين الاختيارات الفردية والمشاريع والأفعال الجماعية. بالنسبة لباومان، يتميز العصر الحديث بأزمة المؤسسات والمرجعيات، وهو ما أسماه "ذوبان المواد الصلبة" التي أصبحت وظائفها الأساسية، التي كانت تنسب وتُعزى سابقًا إلى التقاليد والسلطة، نسبية إلى حد كبير، مما يفسح المجال أمام شكوك مرضية: في ومع إعادة الترتيب هذه، حتى الأشكال الأساسية للعلاقات الاجتماعية تمر بتحولات، من العلاقات الرومانسية إلى العلاقات الدينية، يصبح كل شيء غير مستقر، سائلاً. لذلك، باستخدام استعارة "الزومبي"، التي استخدمها أولريش بيك في الأصل، حيث " سك أولريش بيك قبل سنوات مصطلح "الحداثة الأخرى" في إشارة إلى العصر الذي انقلبت فيه الحداثة على نفسها، عصر يزعم أنه "تحديث الحداثة". وفي مقابلة مع جوناثان رذرفورد في الثالث من شباط/فبراير عام 1999، أشار أولريش

بيك إلى ظاهرة "الفئات الزومبية" و "الكيانات الزومبية"، أي تلك الفئات والكيانات "الميتة التي فارقت الحياة ثم عادت" (باومان ز.، الحياة السائلة، 2016، صفحة 47).

مغرمًا بالاستعارات، وخاصة إعادة التدوير (recyclage)، يربط بومان بشكل وثيق بين مصير الأفراد ومصير الأشياء. مدفوعين في سباق محموم من أجل عدم التحول إلى نفايات، يجب على الرجال والنساء في المجتمع السائل الحديث أن يحققوا إعادة تدويرهم بأنفسهم. إنها مشكلة الهوية التي توجد في قلب تحليل باومان. لم تعد قيم الصلابة والاستمرارية/الدوام، التي كانت في السابق مقبولة ومناسبة، لها نفس الأهمية في العالم الحديث الذي يقدر ويثمن السرعة والتقلب. بالطبع، لا يتم محو التفاوتات الاجتماعية في مثل هذا العالم. الأثرياء والأكثر غنى، الذين يتمتعون بالعولمة والحيوية مثل التدفقات المالية، لديهم فرصة أفضل للنجاح في إعادة تدويرهم الدائم من الأشخاص الأكثر فقرا. بالنسبة للعديد من هؤلاء الفقراء، يجدون أنفسهم مدفوعين على طرق المنفى ويجب عليهم أحيانًا أن يكافحوا للتشبث بالهوية الوحيدة المتاحة لهم.

على الرغم من الفرص غير المتكافئة للنجاح في التوافق مع الإيقاع الذي تفرضه الحداثة، يبدو أن الحياة السائلة تسبب، بالنسبة للجميع، بعض الانزعاج والاستياء. وإذا كان من الصعب تقييم، من أجل تفسير ظهور قيم الحداثة السائلة، وهو ما ينبع من الرغبة في الحركة والتنقل المعمم أو، على العكس من ذلك، من الخوف من الهدر والنفاية، فمن المستحيل عدم ملاحظة، عند باومان، علامة قلق معين. فهو يشجب ويأسف، على سبيل المثال، كيف أن "الحياة السائلة حلقة متواصلة من مراقبة الذات، ونقد الذات، وتوبيخ الذات، إنها تتغذى على سخط النفس على حالها" (باومان ز.، الحياة السائلة، 2016، صفحة 33).

يقع الفرد، وهو المقياس الرئيسي للحياة الحديثة، في قبضة العذاب الأبدي ولا يجد أبدًا راحة دائمة حتى لو سعى إليها. بالنسبة لباومان، إن هذه الحياة تقوم ببناء "ثقافة فك الارتباط والقطيعة والنسيان" (باومان ز.، الحياة السائلة، 2016، صفحة 92).

1. العيش في مجتمع سائل:

بالنسبة لباومان، يتميز العصر الحديث بأزمة المؤسسات والمرجعيات، وهو ما أسماه "ذوبان المواد الصلبة" التي أصبحت وظائفها الأساسية، التي كانت تنسب وتُعزى سابقًا إلى التقاليد والسلطة، نسبية إلى حد كبير، مما يفسح المجال أمام شكوك مرضية: في ومع إعادة الترتيب هذه، حتى الأشكال الأساسية للعلاقات الاجتماعية تمر بتحولات، من العلاقات الرومانسية إلى العلاقات الدينية، يصبح كل شيء غير مستقر، سائلاً. يستخدم بومان هذه الاستعارة لوصف مجتمع عصرنا، أو ما يسمى بمجتمع ما بعد الحداثة. وبالتالي فإن الحياة السائلة ستكون نوع الحياة التي يعيشها المجتمع السائل الحديث؛ وهو " مجتمع تتغير فيه الظروف التي يعيشها أعضاؤه بسرعة لا تسمح باستقرار الأفعال في عادات وأعمال منتظمة " (باومان ز.، الحياة السائلة، 2016، صفحة 21). ليس هناك وقت لتكوين أي عادات، لأن كل شيء يخضع للتحول المستمر.

لقد أصبحت الإجابة على مثل هذه الأسئلة صعبة وتشكل تحديا، خاصة في عصر التحولات السريعة والعميقة، نتيجة الاضطرابات الاجتماعية، الناتجة عن تعقيد التحولات. **يطلق باومان على هذا الوضع اسم "المجتمع السائل"، الذي يتميز بالمؤقت، واللايقين، واللحظية/الفورية.** وأمام هذا الواقع يطرح السؤال: كيف نكون سعداء في هذا العالم؟ ما الذي سيمنحنا السعادة؟ هل هي العائلة؟ أم الدِين؟ أم ماذا؟

وفقًا لجيل ليبوفسكي (Gilles Lipovesky)، في عمله، السعادة المتناقضة، في هذا النموذج المجتمعي، يصبح كل شيء سلعة: تحتل النزعة الاستهلاكية الجامحة أهمية ومكانًا مهيمنًا بشكل متزايد في مجتمع يزداد عزلة وإحباطًا، يبحث عن ملجأ في سعادة متناقضة مفترضة، يوفرها ويجلبها الاستهلاك. لتصبح ناقلًا للاقتصاد، وتحول الرغبات إلى احتياجات، وتفكك الثقافات وتعزز تجانسها، "فالوجود السعيد قد أصبح إلاها، والاستهلاك معبده، والجسد كتابه المقدس" (Lipovetsky, 2006, p. 171).

بالنسبة لباومان، يرتبط انحلال التقاليد وتفكك المرجعيات بأزمة السلطة التي يعيشها المجتمع المعاصر، بسبب سقوط وتهاوي العديد من الأنظمة المبنية تاريخيا، بوصفها عناصر للوحدة، والتي كانت بمثابة مرجعيات محددة ومقبولة بشكل جماعي. وهذا ما يقوله هول: "إن للعولمة تأثيرًا ساحقًا على الهويات، حيث تنتج مجموعة متنوعة من الإمكانيات ومواقف جديدة للتماهي، مما يجعلها هويات أكثر سياسية وأكثر تعددية وتنوعًا". لقد أدى عدم القدرة على معالجة هذه القضايا وهذا العجز تجاهها إلى ظهور مشاكل اجتماعية كبيرة، أي أنه في "المجتمع السائل"، تميل المؤسسات الكبرى، التي كانت مهمة جدًا لدستور المجتمع الحديث، إلى أن تصبح بالية ومهجورة.

2. العيش في مجتمع استهلاكي: عالم من المستهلكين

بالنسبة لباومان، فإن الحداثة السائلة هي نتيجة تعميم الاستهلاك كمبدأ منظم للمجتمع العالمي. هنا، لم يعد الأمر مجرد توضيح كيف يحول المجتمع كل الأشياء (بما في ذلك الطبيعة) إلى مواد وسلع. في الواقع، الحياة السائلة "تجعل من العالم بكل أحيائه وجماداته على أنها موضوعات للاستهلاك (...). إنها تشكل معايير تقييم أحياء هذا العالم وجماداته وفق نموذج موضوعات الاستهلاك " (باومان ز.، الحياة السائلة، 2016، صفحة 30). بالطبع أنه من مجتمع استهلاكي، كنا سننتقل إلى مجتمع مستهلكين، أي عالم يتم فيه تنظيم جميع أشكال الحياة الاجتماعية حول الاستهلاك ويتم مخاطبة كل عضو بصفته مستهلكا. المجتمع الاستهلاكي "يحكم على أعضائه ويقيمهم بما لديهم من قدرة استهلاكية وما يتبعونه من سلوك استهلاكي " (باومان ز.، الحياة السائلة، 2016، صفحة 115). هذا الأمر يترجم من خلال نشر وتعميم المبادئ والقيم المرتبطة بما يسميه باومان "المتلازمة الاستهلاكية": السرعة، انتهاء الصلاحية، الإسراف، التجديد، إلخ. وهكذا، " ففي المكانة الموروثة للقيم المعترف بها، جاءت" المتلازمة الاستهلاكية " لتخلع "الدوام" عن العرش، وتتوج "الزوال" ليتربع عليه، ولتضع قيمة الجدة فوق قيمة الدوام " (باومان ز.، الحياة السائلة، 2016، صفحة 92).

من الواضح أن هذا الشكل الجديد من المجتمع يمثل بالطبع تحديات كبيرة ليس فقط لإنتاج الأشياء والسلع المعدة للاستهلاك (الخاضعة، بالتالي، لضرورة الجدة)، ولكن أيضًا، وقبل كل شيء، لإدارة النفايات التي أنتجها العالم السائل بشكل واسع. لكن "المتلازمة الاستهلاكية" تغير أيضًا الحياة الإنسانية بشكل مباشر، أي بناء الهوية وبناء العلاقات في آن واحد، يقول باومان في هذا الصدد:" فالزمن يمر حقا، وتكمن الحيلة في مواكبته. فإذا أردت أن تنجو من الغرق، فعليك بالاستمرار في ركوب الأمواج، وهذا يعني تغيير دولابك، وأثاثك، و ورق الجدران، ومظهرك، وعاداتك، ويعني ذلك باختصار: تغيير نفسك باستمرار " (باومان ز.، الثقافة السائلة، 2018، صفحة 30).

فيما يتعلق بالهوية أولاً، نجد أن المتلازمة الاستهلاكية وازنة، في هذا السياق، من خلال إجبار الناس باستمرار على إعادة ابتكار هوياتهم بأنفسهم، وليس البقاء منغلقين في هوية واحدة. كل هذا على حساب جهد دائم لاكتساب المعارف اللازمة وبالتالي التكيف باستمرار مع الموضات. باختصار، اتباع ومواكبة التقدم. يُغْرِقُ المجتمع السائل المسْتَهلك في بحث دائم عن الهوية، من أجل التمايز والاستهلاك بشكل مختلف بهدف إنتاج الدليل على تفرده بالنظر إلى الآخرين الذين يصبحون مرجعين وعناصر للمقارنة وجمهور.أخيرًا، يؤدي تسييل وتمييع المجتمع إلى الاختناق، إلى الشعور بالانحباس والانغلاق. من المرجح أن يكون لدى باومان، الذي يتحدث عن مجتمع سائل، نفس فكرة هوبز(Hobbes)، أي أن الإنسان ذئب للإنسان وعلى الرغم من استهلاكه المماثل، إلا أنه يظل، أكثر من أي شيء آخر، كائن مختلف تماما ومتفرد لا يتوقف أبدًا عن السعي وراء هذه الفردانية، التي تدفعهم الدولة نفسها لتبنيها. تعاني المؤسسات الجماعية من فقدان المعنى وحتى الإرادة العامة لم تعد سائدة وفقدت أولويتها، والإرادة الفردية هي التي يتم تقديسها. " وقد لاحظ كاستلز أن السمة البارزة المهيمنة للزمن الذي نعيش فيه هي الإنتاج الكثيف (بل وربما القهري والوسواسي) "للمعنى والهوية: جيرتي، جماعتي، مدينتي، مدرستي، شجرتي، نهري، شاطئي، كنيستي، سلامي، بيئتي"، "وأما عندما يواجه أناس ضعاف عواصف العولمة، فإنهم يلتفون حول بعضهم"، وكلما زاد التفافهم

حول بعضهم كلما زاد ضعفهم "أمام دوامات رياح العولمة"، وعجزوا عن تحديد معانيهم وهوياتهم المحلية، الخاصة بهم " (باومان ز.، الأزمنة السائلة: العيش في زمن اللايقين، 2017، صفحة 100).

في مقالته عن الفردانية، يقول جيل ليبوفيتسكي (Gilles Lipovetsky) إننا نعيش في عصر "الهجر الجماعي" أو زمن "فرار جماهيري" (désertion de masse). ما يعنيه ليبوفيتسكي هو أننا لا نرفض القيم القديمة الموجودة، كلما في الأمر أننا جميعًا غير مبالين بها بشكل كبير في نفس الوقت. " يتعلق الأمر كله باللامبالاة، وتبقى الصحراء ما بعد الحداثية بعيدة عن العدمية "السلبية وتلذذها الكئيب بالتفاهة الكونية، كما هي بعيدة عن العدمية "الفاعلة" وتقويضها الذاتي " (ليبوفتسكي، عصر الفراغ: الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة، 2018، صفحة 39). نحن في بحث دائم عن هوية ثابتة، لكن هذا ليس خيارنا تقريبًا، هذا البحث عن الهوية هو تحت ضغط المجتمع السائل. اليوم فردانية مجتمعنا هي شاملة، وهذا ما يفسر، كما لاحظناه، من خلال حقيقة أن الإنسان هو مادة استهلاك يستهلك. عندما يحلل ليبوفيتسكي المجتمع الذي نعيش فيه، يؤكد أننا دخلنا حضارة الخفيف. لم تعد الأخلاق تؤخذ على محمل الجد، نحن نفكر فقط في أنفسنا ونقع في نرجسية شديدة ومتطرفة. " هذه مرحلة جديدة من الفردانية تتشكل؛ إذ تعبر النرجسية عن بروز ملامح جديدة للفرد في علاقاته مع ذاته ومع جسده ومع الآخر، ومع العالم والزمن، في الوقت الذي تنسحب فيه الرأسمالية السلطوية لتترك مكانها لرأسمالية مُتَعِيَة ومتساهلة " (ليبوفتسكي، عصر الفراغ: الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة، 2018، صفحة 54).

وفقًا لباومان، مثل هذه السيولة تنطبق أيضًا عل العلاقات الإنسانية التي تسقط أيضًا في شباك القيم الاستهلاكية. في الواقع، لا يوجد سبب، على الأقل بين المستهلكين الأكثر اكتمالا وبراعة، بأن جهود المحافظة والصيانة اللازمة لمثل هذه العلاقات تستحق العناية والمتابعة. من ناحية أخرى، فإن العالم الحديث السائل مليء ومتخم بالمنتجات والخدمات التي من المفترض إما أن تسمح للعلاقات بالتحسن من خلال التحول إلى "بدايات جديدة" أو أن تنحل وتفسخ دون ألم. بالإشارة إلى تغلغل قيم النزعة الاستهلاكية في

أسس الحياة الفردية والجماعية، يحاول باومان بالتالي إثبات أن السوق يعمل الآن كوسيط في أنشطة مجهدة، حيث يقول:" تتوسط السوق الآن في الأعمال الشاقة التي ترسخ العلاقات بين الناس وتمزقها، الأعمال التي تجمع بين الناس وتفرقهم، الأعمال التي تصل إلى الناس وتفصلهم؛ الأعمال التي تدونهم في سجل الاتصال وتحذفهم منه " (باومان ز.، الحياة السائلة، 2016، صفحة 123).

ومن وجهة نظر متشائمة، يؤكد باومان أن الهويات أصبحت مرنة ومتقلبة ومائعة على نقيض النماذج المجتمعية المستقرة والثابتة في الأمس. أصبحت هذه المهمة صعبة بالنظر إلى العمليات الجدلية للنزاعات الرمزية، التي يخوضها تكثيف وإعادة التفاوض على الهويات. يبدو أن إزالة السحر (désenchantement) من نموذج "المجتمع السائل" قد أدت تحت الأرض إلى مواقف أصولية وغير متسامحة، لأنه، وفقا لباومان، في مواجهة احتمالات الاختيار التي لا تعد ولا تحصى (الإفراط والمبالغة)، تصبح الأصولية بديلا، مما يشكل استعراضًا واضحا ضد النسبية المعممة، الناتجة عن لايقين حالات الاختيار في عالم يعاني من الفوضى. وهذا ما نلاحظه في بعض المجموعات، في مختلف التقاليد الدينية، التي تقترح أجندة اجتماعية محافظة، لمواجهة حالات اللاأمن التي يفرضها مجتمع متقلب. " وما إن تساعد الجهود المتناغمة الكبيرة التي تقوم بها السوق الاستهلاكية على تمكين الثقافة من الخضوع إلى منطق الموضة، يصبح من الضروري – حتى يكون المرء على طبيعته ويراه الناس على طبيعته – إثبات قدرة المرء على أن يصبح شخصا آخر. فالنموذج الشخصي في البحث عن هوية المرء يصبح نموذج الحرباء في تلونها، أو نموذج برميثيوس الأسطوري الذي له القدرة الاسطورية على التحول كما يشاء إلى أي هيئة أخرى أو أن يتخذ هيئات عشوائية، لكنها مختلفة ومميزة عن الهيئة الأصلية، وكانت محل إعجاب كبير في عصر النهضة من جانب بيكو ديلا ميراندولا (Pico della Mirandola). والثقافة الشاملة الراهنة تطالبك بأن تكتسب القدرة على تغيير هويتك (على الأقل في هيئتها العامة) في أغلب الأوقات، وبسرعة وكفاءة تضاهي سرعتك وكفاءتك في تغيير القميص أو الجورب الذي تلبسه. وستساعدك السوق بثمن بسيط، أو بثمن ليس ببسيط جدا، على اكتساب هذه المهارة امتثالا لتوصية الثقافة " (باومان ز.، الثقافة السائلة، 2018، صفحة 30).

ومع ذلك، فإن ضمان عدم تحول الاختلافات إلى حواجز لا يمكن تجاوزها وعقبات لا يمكن التغلب عليها ليست مهمة بسيطة. يؤكد باومان أن مفتاح فهم هذه المسألة ينطوي على الرغبة في البحث عن مكان مريح ومضياف وآمن بما فيه الكفاية، حتى في عالم مُتوحش لا يمكن التنبؤ به ومُهدد. ويرتبط هذا الوضع بإمكانية التعايش بين مجموعات مختلفة في فضاء معقد، لا يحدده الفضاء الجغرافي فحسب، بل أيضا الفضاء الرمزي، حيث تتمثل إحدى خصائص العولمة ذات الصلة في "الفصل المكاني التدريجي والاستقطاب المتزايد" بين عالمين أو فئتين من السكان، تسمى الطبقات العليا والطبقات السفلى. لقد "كان مانويل كاستلز أول من أشار إلى استقطاب متزايد، وانقطاع تام غير مسبوق للاتصال بين عالمي الحياة الذين يمثلهما سكان المدينة: فأما الفضاء الذي تسكنه الطبقة العليا فعادة ما ينعم بالاتصال العولمي وبشة واسعة من التبادل والتعامل، إنه فضاء مفتوح للرسائل والتجارب التي تشمل العالم بأسره؛ وأما الفضاء المقابل فتسكنه شبكات محلية مقطوعة وفق الخلفية العرقية غالبا، وهي تعتمد على هويتها باعتبارها أفضل مصدر للدفاع عن مصالحها، بل وعن وجودها " (باومان ز.، الأزمنة السائلة: العيش في زمن اللايقين، 2017، الصفحات 92-91). إن هذه العملية الجدلية والغامضة، بين الإفراط والإقصاء، والتعددية والفردية، هي في قلب القضايا والإشكاليات الراهنة. للتغلب على هذا الانقسام، من الضروري فهم العلاقات الرمزية المتبادلة، كمكان للتعددية واحترام تعدد المسارات، وبعبارة أخرى، في المجتمعات المعقدة، حيث يواجه الأشخاص أدوارًا مختلفة، على أصعدة ومستويات اجتماعية مختلفة.

لقد شكل انعدام الأمن والخوف، سواء من حيث المكان أو الحياة اليومية، الجانب المظلم من "المجتمع السائل": انهيار الأسواق المالية وتقلبها، والصفة غير المستقرة والطابع الهش للعلاقات بين الأشخاص، وتحرير قوانين العمل هي بعض من المشاكل التي يواجهها أفراد هذا المجتمع.

إن خيبة الأمل إزاء المرجعيات الأخلاقية والدينية والسياسية تنتج حساسية جديدة لدى الأفراد، الذين يسعون إلى تحقيق ذواتهم والتطور بشكل فردي من خلال البحث عن المتعة، ليس مع الآخرين ولكن

من خلال الأشياء المادية: "في الوقت الذي أصبحت فيه التقاليد والدين والسياسة أقل إنتاجية للهوية المركزية، يتخذ الاستهلاك بشكل متزايد وظيفة هوياتية جديدة" (Lipovetsky, 2006, p. 41).

ثالثا: الهوية السائلة

في مقابلة مع زيغمونت باومان بعنوان "الهوية"، يرى أن فكرة الهوية تنبع من الحاجة إلى الشعور بالانتماء والأمن، وأن وجود الهوية لا ينطبق إلا على المجتمع الحديث "السائل" – الذي يتغير ويتحول باستمرار. يحلل باومان التغيرات التي طرأت على مفهوم الهوية في ضوء التحولات التي يشهدها العالم الحالي، ليس فقط من الناحية الاقتصادية، بل أيضا وبشكل رئيسي حول التأثيرات التي تحدثها وتنتجها هذه التحولات في الحياة اليومية. من خلال نبرة المحادثة، تجمع الحبكة بين مستويات تحليلية مختلفة من خلال الإجابة على الأسئلة وتبادل الآراء مع المحاور. يحقق المؤلف مناخًا تفسيريًا واضحًا للغاية ويضع خطوطًا حجاجية مدعومة بمجموعة متنوعة من الاستشهادات والاقتباسات من مؤلفي علم الاجتماع والفلسفة القدماء والمعاصرين، بالإضافة إلى المقالات الصحفية الحالية وإحالات قصصية من حياته الخاصة.

لقد أصبحت الهوية مشكلة ومهمة جديدة، لأنها لم تكن كذلك قبل دخول البشرية "الحداثة". يرى باومان أن فكرة "امتلاك هوية" لن تخطر على بال الناس طالما أن "الانتماء" يظل مصيرهم وقدرهم، وهو شرط لا بديل عنه. سوف لن يبدؤوا في التفكير في مثل هذه الفكرة سوى في شكل مهمة يجب القيام بها وإنجازها، ويتم تنفيذها مرارًا وتكرارًا وليس بطريقة مرة واحدة. في الواقع، يعد باومان واحدًا من العديد من الفلاسفة وعلماء الاجتماع الذين قاموا بتشخيص الفرد المعاصر الفاقد للاتجاه والذي يشعر بالتيه والارتباك ويدرك ذلك. على مستوى الفرد، نتأرجح بين المخاوف بشأن هوياتنا إلى الحد الذي تتطلب تحليل سيرتنا الذاتية، أو أحداث تاريخنا الشخصي؛ ونوع آخر من الهوية، والذي يتضمن قوتنا، وقدرتنا على تغيير أنفسنا، وتحويل أنفسنا وأجسادنا إلى مشاريع. من الممكن أيضًا أن يكون لدينا هويات متعددة ومتناقضة في مجالات مختلفة من تجربتنا. " هذا، ويمكن للإنسان خلال حياته، أن يحب العديد من المرات، وأن يصبح محافظا بعدما كان تقدميا، وأن يغير ولاءاته إلى كراهية وبغض قبل العودة إلى رغباته الأولى. على أي حال، فإن

الوضع هو الذي يصنع الهوية التي ينتسب إليها الفرد اليوم أو يتنكر لها في المستقبل التي يكيف بها اللاعب سلوكه مع وضع اللعبة" (بومنير، 2022، صفحة 106).

في ما بعد الحداثة، لا تعتبر الهوية شيء معطى أو موروث، بل إن الفرد مضطر ومجبر على اختيار الهويات كمهمة متجددة باستمرار (Homo eligens)، لبناء الهويات كموضوع مخصص لسياق اجتماعي واقتصادي معين، المجتمع الاستهلاكي، ذو الطبيعة العالمية، بالإضافة إلى نشر استراتيجية حياة حيث، بسبب الترابط مع سياقها، لن يكون الشيء المهم هو جعل الهويات تدوم ولكن منعها من أن تصبح ثابتة. في إطار مهمة العملية الهوياتية هذه، تتم الإشارة إلى مسؤولية الذات تجاه نفسها وتجاه الآخر، تجاه الغير أو الغريب. إنه ضمن هذه المسؤولية تكمن جزئيًا المشكلة الأخلاقية المتمثلة في اختيار الهويات. هذه هي الفردانية المفرطة الحداثة وفقًا لباومان، حكم وسيادة وملك من غير تاج وقلق للإنسان الذي يختار (homo eligens)، فحسب باومان: "الفرق بين ألم الاختيار في الوقت الراهن عن الآلام التي لطالما عذبت المرء الذي ينعم بحرية الاختيار (homo eligens) يتمثل في عدم وجود قواعد محتومة مقدرة ولا أهداف مقبولة من الجميع يمكن اتباعها في ثقة واطمئنان، بحيث تريح أهل الاختيار من عبء المسؤولية تجاه أية نتائج عكسية لاختياراتهم " (باومان ز.، الحياة السائلة، 2016، صفحة 160).

الهويات ليست خلقية وفطرية، ولا تعمل كهدايا ميلاد مشبعة باليقين. باعتبارها مهامًا غير مكتملة وفي حالة إعادة انطلاق مستمرة وإعادة تشغيل دائم، فإن الهويات لا تطمح إلى الجمود ولا إلى حالة الأبدية الساذجة والأسطورية إلى حد ما. إن افتراض الثبات في الهوية أو في الثقافة يمكن أن يكون مخيبا للآمال ومضللاً ومخادعاً. بل يتعلق الأمر بدلا عن ذلك بمشاريع، ومهام يجب مواجهتها فرديًا وجماعيًا، واختيارات يتم اتخاذها بعناية واجتهاد حتى نهاية الحياة، مهما كانت تلك النهاية بعيدة ومعقدة. في هذا الاتجاه يصرح باومان:" أقترح أيضا أن الهويات موجودة اليوم فقط في عملية إعادة التباحث. تشكل الهوية، أو بتعبير أدق إعادة تشكيلها، تتحول إلى عمل يستغرق حياة بأكملها ومن دون أن يكتمل؛ فالهوية لا تصل إلى شكل

"نهائي" طالما استمرت الحياة. تبقى دائما مهمة كبرى لإعادة التهيؤ، بما انه لا ظروف الحياة ولا أنواع الفرص والتهديدات تتوقف عن التغير. "اللانهائية" المتجذرة، عدم الاكتمال غير القابل للشفاء لمهمة تعريف الذات، يسبب الكثير من التوتر والقلق. وليس ثمة علاج لذلك النوع من القلق" (باومان ز.، 2016، صفحة 31). إن تلك النهاية والغاية، على وجه التحديد، التي تُفهم على أنها استراتيجية حياة أو مصير للفرد، هي التي سيتم تأهيلها من خلال أفعاله الأخلاقية المستقلة في انسجام أو تعارض مع سلسلة من القواعد العامة والقسرية التي تطمح إلى فرض نظام أخلاقي محدد. إن مجرد العيش في المجتمع والامتثال لقوانينه واحترام واجباته الأخلاقية يخضع لشرط أن يكون الأفراد، بحكم مسؤوليتهم الأكثر حميمية، كيانات أخلاقية.

يضعنا زيغمونت باومان وجهًا لوجه مع حقيقة لا جدال فيها ولا يمكن دحضها. في الحداثة السائلة، في عصور ما بعد الحداثة، لا توجد هوية بالمعنى الصلب والثابت والصارم والجرانيتي (granitique) والسالم (indemne). بل هناك هويات متعددة، كما هو الحال في البنية التجميعية، في وحدة وكلية الفرد، يتم تفكيكها أو تداخلها أو دمجها أو شطبها أو استبدالها أو تشابكها، بشكل غير متساو أو غير متناغم، في علاقات غير شخصية للأفراد الآخرين أو للمجموعة والسياق الاجتماعي. ولذلك، فقد حدث تدهور في القدرة على توليد معاني واحدة نموذجية/نمطية للعصر الحديث الصلب، لتصبح قدرة جديدة، مستقلة، غير منظمة، متقلبة، يتم الآن وضع توليد إشاراتها ورموزها أمام شاشة متعددة الأصوات، متعددة المعاني، مفتوحة وفي إعادة تفسير مستمر. إنها قراءات ومواقف حيوية وهوياتية مجزأة/مفتتة، دون وهم المصير، دون قصص عظيمة وسرديات كبرى (تاريخية، لاهوتية، نشأة الكون، إيديولوجية) تلتزم وتتمسك بها. الهويات، مثل الملابس، قابلة للإزالة، وانتقلت الالتزامات من مدة حياة وصلاحية إلى مدة إلى إشعار آخر فقط. إن المتانة والصلابة التي خلقت الشعور بالأمان والاطمئنان (الأمن)، تسبب لنا الآن الذهول والتهديد. إن النهاية (telos)، المصير الآن تقادم وعفا عليها الزمن الآن وهجرت. لا شيء يدوم. لا المواقف الأيديولوجية؛ ولا المسؤوليات الإيتيقية أو الأخلاقية؛ ولا ضرورات التفكير ومقتضيات الاستدلال، التي تحولت من الافتراضية

والقطعية إلى ورقة رابحة من الانتهازية والابتزاز. الحب، والعمل، والحي الذي أعيش فيه، والزواج، والجيران، وشكل الجسم، والطعام، والملابس التي أرتديها، والعمل الفني أيضًا، كلها أصبحت تفتقد للصلابة والدوام.

يقتبس باومان من فيليب روبرت (Philippe Robert) الذي يقول أنه: "في معظم تاريخ المجتمعات البشرية، ظلت العلاقات الاجتماعية محصورة بقوة في عالم القرب". قبل أن تصبح الهوية مشكلة أجنبية، "بالنسبة لمعظم الناس، كان "المجتمع" هو "المجموع" الأسمى و "الكلية" العليا للتعايش الإنساني...[كان] يساوي الجوار المباشر". اعتاد الناس على تعريف أنفسهم من خلال التماهي مع جيرانهم المباشرين، لأن الحي هو المكان الذي يعيش فيه المرء وينتمي إليه، وكانت فكرة الانفصال عن ذلك الحي والابتعاد عنه أو خارجه بمثابة التخلي عن جذوره. إن حجة باومان حول تفكك الأحياء ببطء وثورة النقل – وهي تطوير البنية التحتية – ربما كانت قادرة على تسهيل الحركة بين الأحياء والمدن؛ وبالتالي يستطيع المرء السفر بعيدًا عن منزله بسهولة أكبر، ونشأت عنه مشكلة الهوية. يقول باومان " وتثير المرحلة الراهنة من الهجرة علامة استفهام حول الرابطة المتينة الأولية بين الهوية والقومية، بين الفرد ومكانه في موطن السكن، بين الجيرة المكانية والهوية الثقافية، أي بين القرب المادي والقرب الثقافي " (باومان ز.، الثقافة السائلة، 2018، صفحة 40).

ترتبط الهوية بفكرة أننا ننتمي إلى كل مكان وليس إلى مكان بعينه. يقترح باومان أنه بإمكاننا حتى أن نبدأ في الشعور بأننا في وطننا في كل مكان – ولكن الثمن الذي يجب دفعه هو قبول حقيقة أنه لن يكون هناك أي مكان يشعر فيه المرء بأنه في وطنه بشكل كامل وحقيقي. إن " الثقافة الهجينة صورة مجازية تضفي رونقا أيديولوجيا ظاهريا على ظاهرة التحرر المتحقق أو المزعوم من المحلية، (...) وصارت تسكن اللاأماكن، تبحث الثقافة الهجينة عن هويتها في "عدم الانتماء" (...) فالهجين الثقافي يرغب في الشعور بأنه في "بيته" في كل مكان حتى يتحصن من البكتيريا الخبيثة التي تمثلها الحياة المحلية" (باومان ز.، الحياة السائلة، 2016، صفحة 55).

ويستمر باومان في التأكيد على أن الهوية لا تنكشف لنا سوى كشيء يجب اختراعه وليس اكتشافه؛ كغاية لمجهود، "هدف"؛ كشيء لا يزال يتعين على المرء أن يبنيه من الصفر أو أن يختار وينتقى من بين العروض البديلة ومن ثم الصراع من أجله ومن ثم حمايته بمزيد من الصراع. إن الهوية، التي تم تكييفها كشكل متحرك للشعور بالانتماء، تتطلب من المرء أن "يخترعها" لأنها لم تعد مرتبطة بالبيئة التي ولد فيها. يمكن تلخيص الهوية على أنها "الماضي المختلط" للشخص، ولأن الأشخاص المعاصرين غالبًا ما يسافرون كثيرًا ويتنقلون على نطاق واسع ويتعرضون لثقافات متعددة بسبب العولمة، أصبحت هوية الفرد إضافة فريدة لسمات شخصيته. ومع ذلك، إذا كان جزء من هوية شخص ما مستمد من خلفيات لا تتوافق مع الخلفيات التي ينتمي إليها حاليًا، أي لا تنسجم مع البلد الذي يوجد فيه في الوقت الحالي، فإن "حقيقة الوضع غير المستقر وغير المكتمل للهوية يجب أن يتم إزالته وتغطيته بشكل شاق" من أعلى.

قد تكون الهوية طريقة جديدة لتعريف الفرد كفرد، ولكن وفقًا لباومان، الهوية ليست مطلقة وربما تكون ببساطة مجرد نتيجة ثانوية لتقدم البشرية. يقول باومان: "هذا في الواقع لغز وتحدي لعلم الاجتماع – إذا كنا نتذكر أنه قبل بضعة عقود فقط كانت «الهوية» بعيدة عن مركز أفكارنا واهتماماتنا، بل ظلت مجرد موضوع للتأمل الفلسفي. أما اليوم، فإن "الهوية" هي "الحديث الأعلى صوتًا في المدينة"، وهي القضية الساخنة والسؤال الملح الذي يدور في أذهان الجميع وألسنتهم. سيكون هذا الانبهار المفاجئ بالهوية، وليس الهوية نفسها، هو الذي من شأنه أن يلفت ويجذب انتباه كلاسيكيات علم الاجتماع لو أنها استمرت فترة كافية لمواجهتها". ويرى باومان أيضًا أن الهوية، عندما تقترن وترتبط بالجنسية (nationalité)، يمكن أن تشوه معناها الحقيقي. "اسمحوا لي أن أكرر: إن «طبيعية» الافتراض القائل بأن «الانتماء عن طريق الولادة» (العضوية بالميلاد) يعني، بشكل تلقائي وبشكل لا لبس فيه، أن العضوية والانتماء إلى أمة ما كانت تقليدًا وبمثابة اتفاقية تمت صياغتها بشكل شاق وبجهد كبير؛ إن مظهر "الطبيعي" يمكن أن يكون أي شيء ما عدا أن يكون "طبيعيا".. يؤكد باومان بإسهاب بأن هوية الفرد لا ينبغي أن تكون مرتبطة بمكان ولادته، لأن

ذلك يتعارض مع هدف ابتكار الهوية، ومن شأنه أن يؤدي بالمجتمع الحديث إلى الانحطاط والتراجع الذي يصبح فيه المرء مرتبطا/مقيدًا مرة أخرى بالبيئة التي ولد أو نشأ فيها.

ويرى باومان أن مصطلحات ‘‘الحداثة’’ أو ‘‘ما بعد الحداثة’’ لم تعد صالحة ومناسبة لوصف التغيرات المستمرة في علم الاجتماع. ولذلك انتقل إلى تقديم مصطلح "الحداثة السائلة" – الذي يصف الحالة العابرة (المؤقتة) للمجتمع الحالي، الذي يعتقد أنه متحرك ومتغير ومتطور باستمرار وقابل للتكيف بدرجة كبيرة. في الحداثة السائلة، لا يرتبط الشخص بمسقط رأسه (مكان ميلاده) أو ماضيه أو التقاليد المجتمعية لأن هذه القواعد لا يمكن تطبيقها على الحالة الراهنة والوضع الحالي للمجتمع. يتضمن ذلك القدرة على الاستعداد المستمر والرغبة في التغيير والتكيف بسرعة مع البيئات المتغيرة.

هكذا يظهر أن " الحياة لم تعد في الحداثة السائلة، على حد تعبير زيغمونت باومان، سلسلة من الأحداث المتعاقبة وفق تسلسل ثابت: التكوين، والشغل، والتقاعد، أو اللقاء، والزواج، والأطفال، وليس هذا فقط، بل أصبح من الممكن تنظيم مكونات الهوية، المركزية أو المحيطية، وإعادة النظر فيها على مهل " (بومنير، 2022، صفحة 82). وعلى النقيض من الحداثة السائلة، كانت «الحداثة الصلبة» – الشكل القديم للعلاقات والهويات، في حالة أكثر استقرارًا وقابلية للتنبؤ بها. يعتقد باومان أننا نسعى ونبني ونحافظ على المرجعيات المجتمعية لهوياتنا أثناء التنقل – ونكافح من أجل مجاراة المجموعات المتنقلة والسريعة الحركة المماثلة التي نسعى إليها ونبنيها ونحاول أن نبقيها على قيد الحياة للحظة، ولكن ليس لفترة أطول من ذلك بكثير. لقد تكيفت الحداثة السائلة مع الصفات غير الإنسانية إلى حد ما للعصر الرقمي، والصفات المتعددة الأوجه نتيجة للعولمة. ومع ذلك، فإن هذا التغيير، حسب باومان، قد غيّر بشكل جذري معنى الهوية مقارنة بالشكل الذي كانت عليه في البداية. إن الحالة "السائلة الحديثة" لم تنمو فقط إلى الحد الذي لم يعد فيه المرء بحاجة إلى الارتباط بالبيئة التي نشأ فيها؛ لقد تطورت أيضًا إلى مرحلة حيث يمكن للمرء أن ينفصل تمامًا عن محيطه المباشر. وكما كتب باومان: "للقيام بذلك، لا نحتاج إلى دراسة وإتقان شفرة/كود

(Goffman) غوفمان. الهواتف المحمولة سوف تفعل ذلك وتفي بالغرض. يمكننا شرائها؛ مع جميع المهارات التي قد نحتاجها لهذا الغرض، في أحد المتاجر الكبرى في الشارع الرئيسي. مع تثبيت الخوذة بصلابة (casque) في مكانها بشكل آمن، فإننا نستعرض انفصالنا عن الشارع الذي نسير فيه، ولم نعد بحاجة إلى آداب السلوك المتقنة. ومن خلال تشغيل الهاتف المحمول، نغلق الشارع (أي ننقطع عنه).

ووفقا لباومان، فإن افتتان علم الاجتماع المفاجئ بمفهوم الهوية يرجع إلى انهيار تلك المؤسسات (الأسرة، الدولة، الكنيسة) التي شكلت الأساس الذي بني عليه المجتمع الحديث. وفي ما يسميه بالحداثة السائلة، ينقسم العالم إلى أجزاء قليلة التنسيق، وفي حياتنا، لا يسعنا إلا أن نمر عبر أكثر من "مجتمع من الأفكار والمبادئ". "في عصرنا السائل الحديث، حيث البطل الشعبي هو الفرد الحر الذي يطفو بإرادته الحرة كما يشاء، ويكون ثابتًا، ويتم تحديده بشكل غير مرن ودون الرجوع إلى الوراء، ويتعرض لضغوط سيئة بشكل متزايد". وبهذا المعنى، يشير النقاش الحالي حول الهوية أو الهويات إلى تلاشي ومحو التسلسل الهرمي للهويات الحديثة ويؤكد أنه "بمجرد أن تفقد الهوية المرتكزات الاجتماعية التي تجعلها تبدو "طبيعية"، ومحددة سلفًا ولا يمكن إنكارها، يصبح "تحديد الهوية" ذا أهمية متزايدة" بالنسبة لأفراد يبحثون بشدة وبشكل بائس عن "نحن" يمكنهم الوصول إليه". عندما لا يكون الجمهور والعمومي بهذه المتانة والصلابة، فإن ثقل وضع المبادئ التوجيهية والمسؤوليات يقع بالكامل على عاتق الفرد. لهذا السبب، يستشهد في جميع أنحاء الكتاب بأمثلة من حياته اليومية حيث يعرض معضلة حمل نفسه مع العديد من الهويات: رجل، بولندي (الأصل)، إنجليزي (متجنس)، يهودي، عالم اجتماع، أستاذ جامعي، إلخ.

في الحداثة السائلة، يُمثلُ ويُعدُّ البقاء دون تغيير اقتراحًا خطيرًا. وتواجه الهوية، بحسب المؤلف، معضلة مزدوجة تتمثل في خدمة اقتراح التحرر الفردي ومشروع الانتماء الجماعي أو خطة العضوية الجماعية التي تلبي رغبتي الحرية والأمن. يتم تقديم الصراع من أجل الهوية، إذن، كمعركة لا نهاية لها، كشيء "يجب بناؤه من الصفر أو اختياره من عروض البدائل ثم القتال لحمايتها بنضال أكثر شراسة. ولم تعد الأطر المؤسسية، باعتبارها نقاط توجيه ثابتة للعمل، موجودة؛ هناك الكثير منها والعديد منها يتناقض مع بعضها البعض، مما

يجرد ويحرم الأنماط والتشكيلات القديمة من قوتها القسرية والتمكينية المحفزة. والنقطة المهمة الأخرى في تطورها هي تلك التي تضع الهوية كعامل قوي في التقسيم الطبقي الاجتماعي. هذا العامل، الذي ألمح إليه ماكس فيبر (Max Weber) في السابق عندما تحدث عن أهمية "وضع مكاني" وأنماط حياة الناس، يتم تقديمه اليوم كعنصر تمييزي وهرمي للغاية.

ويشير باومان إلى أنه في أحد طرفي التسلسل الهرمي العالمي الناشئ، يوجد أولئك الذين يستطيعون تكوين هوياتهم وتفكيكها حسب الرغبة بشكل أو بآخر، مستمدين من أسفل عروض كبيرة للغاية ذات امتداد كوكبي. أما الطرف الآخر فهو مكتظ بأولئك الذين حرموا من حرية اختيار هوياتهم، وهم الأشخاص الذين لم يُمنحوا أي صوت أو حق التصويت لتقرير تفضيلاتهم والذين، في نهاية المطاف، يتحملون عبء الهويات التي يفرضها الآخرون عليهم ويجبرونهم على تبنيها. الامتثال والمطابقة؛ هويات يقاومونها ولكن لا يسمح لهم بالتخلي عنها ولا يستطيعون التخلص منها. الهويات النمطية، والمذلة والمهينة، والمجردة من الإنسانية، والموصمة. " من هذا المنطلق، تظل الفردية امتيازا للصفوة، ومن المحتمل أن تظل كذلك إلى زمن طويل. إنها امتياز داخل كل مجتمع شبه مستقل يشهد لعبة توكيد الذات عبر انفصال المستهلكين القادرين "المتحررين"، الذين يسعون إلى تشكيل فرديتهم الفريدة وإعادة تشكيلها من "النسخ المحدودة" لأحدث التصميمات الراقية، عن الحشد المجهول الذي يمثله الناس "العالقون" و "المحصورون" في هوية لم يختاروها، ولم يطرحوا الأسئلة حولها، هوية مسندة إليهم أو مفروضة عليهم، لكنها على كل حال هوية "محددة تحديدا بالغا" (باومان ز.، الحياة السائلة، 2016، صفحة 52). ويؤكد أن معظم الناس يجدون أنفسهم عالقين بين هذين النقيضين، ويعيشون غير متأكدين أو في حالة من اللايقين من المدة التي ستستمر فيها حريتهم في اختيار هويتهم أو سيتخلون عنها إذا كانت تزعجهم. ولهذا السبب، فإن شبح الإقصاء يطارد الجميع، بوعي أو بغير وعي.

من الواضح أن تحليل زيغمونت باومان يركز على فهم العمليات الاجتماعية الحالية القائمة على التوتر بين ضغوط القوى العالمية والمؤسسات الموروثة من العصور التي تلاقت واتصلت فيها السياسة والسلطة على مستوى الدولة–الأمة أو الدولة القومية. فمن ناحية، تتبخر السلطة صعودًا إلى الفضاء الكوكبي في مكان الأعمال التي تتجاوز الحدود الإقليمية، ومن ناحية أخرى، تهرب السياسة نحو الميدان المحلي، حيث يحاول الأفراد ذوو التحالفات الضعيفة إيجاد حلول خاصة (بدون نتائج) للمشاكل العامة. إذن، ما هي العولمة بالنسبة للبعض؛ إنها مكان للآخرين. في المرحلة السائلة من الحداثة (والتي يشار إليها أيضًا باسم "المجتمع تحت الحصار")، تخضع الأغلبية المستقرة لنخبة بدوية مترحلة وتتجاوز الحدود الإقليمية، وهي نخبة متنقلة ومراوغة ومتغيرة ومتملصة وهاربة على نحو متزايد. إن عمليات العولمة التي تعمل على توسيع حريات البعض تبدو وكأنها قدر من عدم اليقين والخوف بالنسبة للآخرين.

تجلب العولمة معها العديد من التحديات، على المستوى الشخصي والمجتمعي. وفقًا لباومان، في المجتمع السائل ‘‘الجماعة ظاهرة ذات وجهين، غامضة تمامًا، محبوبة أو مكروهة، جذابة أو مثيرة للاشمئزاز. واحدة من أكثر الخيارات المرعبة والمزعجة والمثيرة للأعصاب من بين العديد من الخيارات المتناقضة التي نواجهها يوميًا، نحن سكان نحن سكان السائل الحديث. وخلافاً لما حدث في الماضي، هناك فإننا نشهد تحولاً نموذجياً في فهم الهويات، التي كانت في السابق "صلبة" و"ثابتة" وأصبحت الآن "مائعة" و "سائلة". إنها مُثُل حديثة، مدفوعة إلى أقصى الحدود، حيث نسعى إلى فهم الموضوعات الجماعية من وجهة نظر فردية: ‘‘[...] يدعي الفرد، في المجتمعات الغربية على الأقل، أنه عالم بحد ذاته، فيعتزم تأويل المعلومات التي تصل إليه بنفسه، ومن أجله شخصيا" (أوجيه، 2018، صفحة 42)، أي أنه ينوي أن يفسر المعطيات المقدمة إليه بذاته ولذاته. ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن النزعة الفردانية، التي تنسبها المجتمعات المعقدة والتعددية، لم تلغي إمكانية الروابط المجتمعية، بل شكلت بالتأكيد أفقًا جديدًا، خاصة فيما يتعلق بدور الظاهرة الدينية.

الخاتمة: الحياة السائلة، وفقًا لباومان، هي وجود يتميز بزمنية الأسواق. يتحول المواطنون فيها إلى مستهلكين وينغمسون في سباق دائم لمواكبة الوتيرة المحمومة للحداثة. الهويات، مثل العلاقات، قد انتقلت إلى حالة سيولة، فهي متغيرة، ويجب أن تصل إلى التنقل تجنبا لخطر أن تصبح متجاوزة ومهجورة وبالية وعفى عنها الزمن. لا يمكن للإنسانية أن تهرب وتفلت من عالم لا يترك لها كأفق سوى أن تكون إما منتجًا استهلاكيًا أو نفايات. السبيل الوحيد للخروج من هذه الحالة هو: إعادة إنشاء حياة مدنية يتم فيها التعبير عن الأعمال الجماعية بقوة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. بوعمامة ا شرارة ح. (2019). واقع الهويات السائلة في سياق المثاقفة الجديدة. المجلة الجزائرية للأمن الإنساني، 5(1)، الصفحات 680-702. تم الاسترداد من https://asjp.cerist.dz/en/article/108100

2. فوزية .شراد. (2017). من الحداثة الصلبة إلى الحداثة السائلة-مكامن التأزم وسبل الانفراج- منظور زيجمونت باومان.،)الصفحات 743-770 .(باتنة.

3. Gilles Lipovetsky. (2006). Le bonheur paradoxal: Essai sur la société d'hyperconsommation. Paris ،France: Editions Gallimard; Collection : Folio.

4. J. Mármol. (2019). Zygmunt Bauman y la identidad como problema ético. D-Universidad Nacional Pedro Henríquez Ureña.35-34 ،.

5. أبوجبر،حجاج. (2022). حجاج أبو جبر، هل من مكان للهوية في عالم معولم " استكشاف "الهوية السائلة" عند زيغمونت باومان". مجلة تبيّن، 11(41)، صفحة 155.

6. الزهرة قني. (2023). زيغمونت باومان المساءلة النقدية للحداثة الغربية. صحيفة المثقف.

7. الغذامي، عبد الله محمد .(2009) .القبيلة والقبائلية، أو، هويات ما بعد الحداثة .المركز الثقافي العربي.

8. اليزيد بوعروري. (2022). الهوية السائلة في المجتمعات المعاصرة. مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، 07(01)، 866.

9. جيل ليبوفتسكي. (2017). مملكة الموضة زوال متجدد "الموضة و مصيرها في المجتمعات الغربية. (دينة مندور، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للترجمة.

10. جيل ليبوفتسكي. (2018). عصر الفراغ: الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة. (حافظ إدوخراز، المترجمون) بيروت، لبنان: مركز نماء للبحوث والدراسات.

11. حميد لشهب. (2021). نقد الإستهلاكية في الحياة الغربية –رقمنة الإنسان وفقدان الهوية. مجلة الإستغراب(23)، الصفحات 158-159.

12. زيجمونت باومان. (2016). الحياة السائلة (الإصدار ط1). (حجاج أبو جبر، المترجمون) بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

13. زيجمونت باومان. (2017). الأزمنة السائلة: العيش في زمن اللايقين. (حجاج أبو جبر، المترجمون) بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

14. زيجمونت باومان. (2018). الثقافة السائلة. (حجاج أبو جبر، المترجمون) بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

15. زيجمونت باومان. (2016). الحداثة السائلة. (حجاج أبو جبر، المترجمون) القاهرة، مصر: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

16. زيجمونت بومان. (2012). الحرية (الإصدار ط1). (فريال حسن خليفة، المترجمون) القاهرة، مصر: مكتبة مدبولي.

17. زيغمونت باومان. (2016). الأخلاق في عصر الحداثة السائلة. أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة.

18. سعاد سحنون، عبد السلام عمور،. (2023). سؤال الهوية والاختلاف من منظور الفيلسوف زيجمونت باومان. مجلة رفوف، 11(01)، 612.

19. عبد علي حسين. (30 03، 2023). الحداثة السائلة وجدل الهوية الهوية. تاريخ الاسترداد 30 03، 2023، منalantologia: https:alantologia.com

20. قريش بن علال. (2014). أثر الإستهلاك الهوياتي في بناء هوية الزبون كوسيلة لتحقيق التميز. المجلة الجزائرية للإقتصاد و الإدار.

21. كمال بومنير. (2022). التسارع، الاغتراب، والتصادي: قراءات في فكر هارتموت روزا (دراسات ونصوص مترجمة). هران، الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع/دار الروافد الثقافية–ناشرون.

22. ليلى غضبان. (2022). بلاغة الإعلام في الحداثة السائلة. المجلة الجزائرية للأبحاث والدراسات.

23. مارك أوجيه. (2018). مارك أوجيه، اللاأمكنة: مدخل إلى أنثروبولوجيا الحداثة المفرطة. المنامة، البحرين: هيئة البحرين للثقافة والآثار.